برنامج التربية الأخلاقية في السنة النبوية

المقدمة

تحت إشراف مفتي الديار المصرية نور الدين

علي جمعة

{ حفظه الله }

IPE
مؤسسة التعليم الأهلي
Institute for Private Education



بسم الله الرحمن الرحيم

رنامج التربية
أخلاقية في
سنة النبوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق وإمام المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

أمّا بعد: فإن الدين الإسلامي يتمتع بالقدرة على ترجمة جوانب معينة من العقيدة إلى مبادئ وقيم جمالية وأخلاقية، والشريعة الإسلامية إنما **شُرِعَتْ لتحقيقِ مقاصدَ وغاياتٍ فاضلةٍ تُهَذِّبُ سلوكَ من يَتَّبِعُ هَدْيَهَا** ويقتفي آثارها، فتؤتي ثمارها في تحقيق مصالح البلاد والعباد.

وتهدف تلك المقاصد جميعها إلى توفير الأمن والسلام في حياة الناس على السواء، أمنا وسلاماً يشمل حياتهم وعقائدهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم.

ولذلك نجد الشرع يحث الناس في أكثر أوامره على التعايش بسلام ورحمة، ليتمتع كل منهم بحرية في عقيدته وماله وفكره ومذهبه بالشكل الذي يتفق مع حياته ووجوده والذي يظن أنه يحقق له المصلحة.

والحريات في نظر الإسلام حريات متبادلة ومشتركة بين الناس، فلا يحل لأحد أن يتمتع بحرية العقيدة مثلاً ثم هو يفرض على الآخرين عقيدته فيسلبهم بذلك حريتهم في الاعتقاد، ولا يجوز له أن يتغافل عن الدفاع عن حرية الآخرين بعد أن تكاتفوا وطالبوا له بحريته التي حازها. وكذلك لا يحل له تحت شعار حرية الفكر أن **يُسَفِّهَ الآخرين أو يُحَقِّرَ أفكارهم**؛ وكأنه بذلك الفعل لا يعترف لهم بحقهم في حرية التفكير، ولكن كل ما تتيح له حريته الفكرية أن يناقش الآخرين أفكارهم التي اعتنقوها بالعقل والمنطق والخطاب اللين المهذب.

وأساس الحريات في الإسلام مبني على تأمين حياة الفرد في المجتمع بتأمين ضرورياته وحاجياته التي تمكنه من التفكير في هذه الحريات؛ لأنه إن لم يأمن على ضروريات عيشه فلن يستشعر لحريته طعماً إن وجدها، ولن يخطر بباله المطالبة بها لنفسه أو لآخرين إن **سُلِبَهَا**.

وعالمية الإسلام تجعل المسلمين مطالبين بالدفاع عن حريتهم وحرية بقية الأمم، فالإسلام طالب أتباعه بتوفير الأمن والسلام والحرية للمسلمين وغيرهم في المجتمع الإسلامي خاصة والمجتمع الإنساني عامة، ولا بد أن يظهر المجتمع الإسلامي نموذجاً للرحمة والسلام لكل مخلوق يدخل في نطاقه، رحمة وسلاماً بالإنسان مهما اختلفت ديانته أو ثقافته أو عرقه، رحمة وسلاما بالحيوان، رحمة وسلاماً بالطبيعة أشجاراً وأنهاراً وغابات وتربة وغير ذلك، ممّا يجعل مظهره داعياً بقية الشعوب لمعرفة الدين الإسلامي **رغبةً** في اعتناقه أو الانتماء إلى حضارته وأخلاقه التي جمعت بين الروحية والمادية وبين المثالية والواقعية، بما حقّق للإنسان كرامته التي كفلها الله له حين خلقه.

وبما أن القيم الأخلاقية الفاضلة **تَحَقُّقَهَا وتربيةَ الناسِ عَلَيْهَا وَمُطَالَبَتَهُمْ بِهَا مُتَرَتِّبٌ** على توفير ضروريات الحياة وتحصيلها، فصلاح الإنسان في النظرة الإسلامية يبدأ من الأخلاق وينتهي إليها، يبدأ منها حيث تكون داعية إلى الهداية والصلاح ومنتهية إليها حيث تكون ثمرة لصلاح حياة الناس وكمالها بأفعال تظهر فيها المروءة والكرم والمحبة.

وقد شرع الإسلام قوانين وأحكاماً من شأنها أن تحافظ على إقامة الأخلاق في المجتمع الإسلامي، سواء بين أفراده بعضهم البعض أو بينهم جميعا وبين بقية المجتمعات الإنسانية، وهذه الأحكام تضمن بقاء القيم الأخلاقية وحفظها من العبث، مما يسمح للناس بالتعايش في سلم وتسامح وتعاون.

ومن هذه التشريعات فرض الزكاة والصدقة والنذور والكفارات والضمانات المادية، وفيها يظهر التكافل الاجتماعي والمشاركة بين المسلمين. وحد السارق والمحارب والقاتل والزاني؛ لأنهم يهددون الجماعة ويعتدون على أمنها واتحادها ويعبثون بالقيم الأخلاقية جميعها فوجب ردعهم حفاظاً على أمن المجتمع وسلامته.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى بيان أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهجاً خاصاً، وخطة أو برنامجاً تربوياً كان يطبقه بين أصحابه من أجل إقامتهم على القيم الأخلاقية المثالية، وهذا البرنامج اتبع فيه النبي صلى الله عليه وسلم خير الطرق وأحسنها من أجل تحقيق الأهداف التي ظهرت بشكل جلي في حياة الرسول وبعد وفاته في عهد خلفائه الراشدين، فقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تربوا على يديه هم خير الخلق خلقا، مع أنفسهم ومع الأمم الأخرى، وكانوا نموذجاً للفضيلة والعفة والعدالة والصدق والتسامح والمحبة.

ووجود هذا البرنامج التربوي أو المنهاج الأخلاقي الشامل في الإسلام أمر بَيِّنٌ واضح، تدل عليه من الشواهد والأحاديث والمواقف النبوية ما يصعب حصره وتجلية أمره، فقد كانت الأخلاق أساساً قام عليه هذا الدين، وفيه تمت وكملت.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه المواقف التربوية **مبلِّغًا ومربِّيًا ووالِدًا وصاحِبًا وناصِحًا**، وكان لكل ذلك **ظلالٌ** تؤثر في **المربَى** بشكل غير مباشر، ظهر في حوار النبي صلى الله عليه وسلم وإشارته ونظرته وبسمته فترك في نفوسهم أبلغ الأثر.

دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكارم الأخلاق:

دعا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى التحلي بمكارم الأخلاق والتخلي عن رذائلها، وبين أهمية الأخلاق وفضلها وشرفها في عدد كبير من النصوص والأحاديث، وقد تكررت هذه الدعوة في مواقف متعددة، وجاءت بصيغ مختلفة، وتلك الدعوة أخذت بعدين:

أحدهما عام، بَيَّنَ فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ضرورة الامتثال للأخلاق الكريمة بشكل مباشر فيه تعميم، أتاح للعقل والنفس أن تجتهد في امتثال كل خلق كريم يُتَصَوَّرُ وجودُهُ في أيِّ موقف إنساني، وبين النبي صلى الله عليه وسلم أهمية الالتزام الخلقي في حياة المسلم المنقطعة في الدنيا والدائمة في الآخرة، ورتب محبة الخالق ومحبة رسوله على الالتزام الخلقي، وقصر بعثته على إتمام مكارم الأخلاق حيث قَالَ: ﴿ بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ حُسْنَ الأَخْلاَقِ ﴾ [1]. ورغب النبي صلى الله عليه وسلم في امتثال الأخلاق الكريمة ببيان أهميتها وشرف الملتزم بها في الآخرة والدنيا والثناء عليه، فقد وصفه بكمال الإيمان قال صلى الله عليه وسلم: ﴿ أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ﴾. وأنهم من أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: ﴿ إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاَقًا ﴾ [2]. وإن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: ﴿ تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ ﴾ [3]. ورفع قيمة حسن الخلق برفع ثوابه عند الله فَعَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِىِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ﴿ مَا مِنْ شَىْءٍ أَثْقَلُ فِى الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ ﴾ [4]. وحسن الخلق يبلغ المرء درجة المجتهد بالعبادة المنشغل بها قال صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ ﴾ [5].

وأما البعد الخاص: فقد خَصَّصَ فيه النبي صلى الله عليه وسلم لكل قيمة على حدة دعوة وبياناً، كالسلام والمحبة والاحترام والتسامح، بَيَّنَ في تلك الدعوة أهمية القيمة الأخلاقية وفضلها وكيفية تحصيلها ومستويات الالتزام بها، أو نهي عن قيمة سلبية بعينها كالغش والكذب والاعتداء.

ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم للأخلاق أخذت أشكالا كثيرة، منها ما كان مباشرا، ومنها ما كان تمثيله بالقدوة والممارسة العملية، وسوف تتضح وتتجلى لنا تلك الأساليب التربوية وأشكالها في الصورة التي ترسمها تلك الأحاديث المختارة التي ستأتي في البحث، مما سيخلص بنا إلى تأكيد وجود منهج منضبط متكامل للتربية الأخلاقية النبوية تعكسه هذه النصوص والأحاديث.

فقد قدم النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة أنموذجا للخلق البشري الكامل قال عنه ربه سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [6]. وجاء النبي في صورة الكمال الخلقي، فلم يكن دوره بين أصحابه قاصرا على إعطائهم الأوامر ومراقبة التنفيذ، ولكنه عايش أصحابه وشاركهم الأعمال والهموم، فشاركهم بناء المسجد وحفر الخندق والهجرة إلى المدينة والجهاد والصبر على الجوع والآلام، ولم يكن صلى الله عليه وسلم يستأثر لنفسه بشيء بل كان يعاني كأقل واحد في أصحابه ويؤثرهم في كثير من الأحيان على نفسه.

الأدوات والأساليب التربوية ﮪ منهج النبي:

اهتمت السنة النبوية بأساليب التربية وفعاليتها ﮪ تنشئة الفرد وتقويمه وتوجيهه وتحفيزه، وراعت هذه الأساليب خصائص ومميزات نموه العقلي والنفسي والجسمي.

ومن الأمور التي يمكن الإشارة إليها قبل عرض الشواهد والأحاديث للدلالة على **تَنَوُّعِ** الأساليب التربوية واكتمالها ﮪ صياغة المنهج النبوي ﮪ التربية الأخلاقية، وذلك لتكون حاضرة مدركة عند الوقوف على شواهدها:

١. **نَوَّعَ النبيُّ** صلى الله عليه وسلم ﮪ أدواته المستخدمة ﮪ التدريب على القيم الأخلاقية بين الكلمة والإشارة والابتسام وتعبيرات الوجه. وكذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على التفكير ودربهم على محادثة الذات ومحاسبتها، ممّا نمي فيهم حاسة الضمير الأخلاقي والوازع الديني، وأحيانا كثيرة كان يقيم معهم حوارا شفويا مشتركا يتسم بالعقلانية والمنطقية، ويدور حول هدف واحد ومسئولية محددة. ومثل هذه الأدوات **إنِ اسْتَوْعَبَهَا المُرَبِّي اليومَ وأحسنَ استخدامَهَا فسوف يُحَصِّلُ** نتائج باهرة ﮪ عمليته التربوية.

٢. استخدم النبي صلى الله عليه وسلم من الأساليب التربوية:

- الحوار الخطابي والتعبدي والوصفي والقصصي والجدلي والعاطفي والإقناعي.
- ضرب الأمثال.
- تقديم القدوة الحسنة على مثالية الفعل الأخلاقي ﮪ العمل والصدق والأمانة والشجاعة والعفو والتسامح.
- المشاركة والممارسة العملية ﮪ العمل الأخلاقي.
- استخدام الرياضة ﮪ تنمية روح التعاون والتسامح والاتحاد مع المجموع.
- إلقاء العبرة والموعظة والتذكير بالثواب والعقاب الأخروي.
- الترغيب بعرض النتائج المترتبة على الالتزام الخلقي، والترهيب من عواقب الإخلال والتفريط فيه.

٣. كان للصياغة اللغوية للقيمة الأخلاقية دور حيوي ﮪ منهج النبي صلى الله عليه وسلم، **مراعاةً** منه لحال مخاطبيه فقد كان العرب **يُجِلُّونَ اللغةَ ويُقَدِّرُونَ** بلاغتها، فكانت تؤثر فيهم صورها وألفاظها أبلغ تأثير، ولذلك صاغ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته للقيم بأسلوب بليغ جمع بين قوة المعنى والعاطفة ووضوح الحجة والبرهان وبين رقة الألفاظ وبساطتها. فقد **أُوتِيَ** صلى الله عليه وسلم **جوامعَ الكَلِم**، واستخدم من الأدوات اللغوية ضرب المثل وسوق الحكمة وإقامة الحوار وحكاية القصة، وجاءت عباراته موجزة مؤثرة ذات وقع وجرس عميق الأثر ﮪ النفس.

٤. كان صلى الله عليه وسلم يحسن استغلال المواقف والمقامات التربوية، والتي تجعل للقيم ارتباطا واقعيا بالحادثة، فلا تمحى من

ذهن من عاشها أو سمعها من **بعدُ مرتبطةً** بالواقعة.

٥. كان هناك تدرج في مستوى الأوامر النبوية التي تتعلق بالمبادئ الأخلاقية، سواء على مستوى مراعاة الأفراد وأحوالهم أو على مستوى الأمر ذاته شدة ولينا. فقد كان صلى الله عليه وسلم يراعي الخصائص الذاتية لكل فرد من الصحابة، ولا يسعى إلى تربيتهم على نمط واحد، وإنما **يُكَوِّنُهُم** بما يناسب مواهبهم وشخصياتهم على اختلافها، ولذلك كان جوابه يختلف كلما **سُئل**: أي الأعمال أفضل؟ فيكون جوابه مراعيا حال السائل وطبيعته.

ومثله في القرآن الكريم **التَّدَرُّجُ** في مستويات أخذ الحق أو إعطائه، فقد احترم الإسلام حق الإنسان في أن ينتصف لنفسه من ظالمه وينتصر لها إذا ما وقع عليها بغي وعدوان، وفي مستوى ثان **رَغَّبَهُ** في العفو والإصلاح، وفي مستوى ثالث من الالتزام **بالْمُثُل** لا يستطيعه إلاّ ذوو العزائم القوية **يَحقُّ** له الغفران وتحمل أذى الناس بصبر وتسامح وأن يرجو الأجر والجزاء من الله في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٧).

فالالتزام الأخلاقي في الإسلام يتصف بالجمع بين الواقعية والمثالية؛ لأنه تتعدد فيه المستويات، لا يحرم من **صَفَتْ نفسُهُ وعَلَتْ همَّتُهُ أن يَرْقَى بخلقه إلى قِمَّة** المثالية، وكذلك لا يجعل من ارتضى بالمناصفة والمماثلة في الأخذ والعطاء **محرومًا فعلُهُ** من صفة الأخلاقية.

أقام النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على التفكير المنطقي في الحياة عامة وفي السلوكيات الأخلاقية خاصة، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: ﴿ كَيْفَ تَقْضِى إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ ﴾. قَالَ: أَقْضِى بِكِتَابِ اللَّهِ. قَالَ: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِى كِتَابِ اللَّهِ ﴾. قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم. قَالَ: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَلاَ فِى كِتَابِ اللَّهِ ﴾. قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِى وَلاَ آلُو. فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَدْرَهُ وَقَالَ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِى رَسُولَ اللَّهِ ﴾ (٨).

- وفيه أيضاً بيان لأهمية الثناء على **المربَّى** في العملية التربوية، فقد استخدم النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب بشكل فريد، حينما قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِى رَسُولَ اللَّهِ. فقد أثنى على معاذ، وأرشده إلى صواب رأيه، ووجهه أن الفضل لله وحده بأن وفقه للرشاد ووفق الرسول لتعليمه، فهي صورة تجمع بين التواضع لله عز وجل، والبهجة بالإصابة في الفهم عن الله ورسوله، مع ثناء عليه يدفعه لمزيد معرفة وإحسان.

٦. تهدف التربية الأخلاقية في الإسلام إلى:

- إصلاح ما بين العبد وربه، سريرته وعلانيته.
- تكوين الرقيب الأخلاقي الذاتي.
- تقوية إرادة الفرد وإحساسه بالمسئولية الذاتية في تهذيب غرائزه ودوافعه.
- ترقية السلوك الإنساني وترشيده.
- تنشئة الفرد على الشعور بالمسئولية الخلقية تجاه الجماعة.
- تكوين الجماعة الفاضلة.
- تحقيق السعادة التامة للمسلم في الدنيا بتحقيق حياة كريمة للفرد مع الجماعة، وتحقيق سعادته في الآخرة بالمغفرة والرضوان وتحصيل الجنة. وهو غرض يميز التربية الأخلاقية الإسلامية عن مثلها في المفهوم الغربي الذي يقتصر على سعادة الدنيا فقط.
- ومراعاة مفهوم البعث والحساب الأخروي يجعل المعيار الأخلاقي الإسلامي معياراً منضبطاً ذا أسس واضحة، فإن الفعل الخلقي ليس له معيار واحد يرتضيه الجميع، ولكن تختلف معايير كل عقيدة بحسب رؤيتها للكون والوجود. ولكن العولمة في العصر الحديث والتي تمثل معركة بين العالميات أو النماذج الحضارية المختلفة يود أصحابها أن يحددوا معياراً واحداً للمثل والقيم الأخلاقية يسير على نهجه الإنسان العالمي، وهي بذلك تؤثر على جوانب الحياة الخلقية تجاه النفس والآخر؛ لأن معيارها ليس منضبطاً وليس فيه ثبات، فهو تارة تتخذ المجتمع وثقافته وحضارته معياراً، وتارة أخرى تتخذ العقل معياراً، ممّا يؤدي إلى سيطرة أخلاق الأقوياء على الضعفاء ولو كانت أخلاقاً فاسدة. ويؤدي أيضاً إلى غلبة نماذج معينة من القيم الأخلاقية وأنماط معينة من السلوك والذوق يقضي على شخصية الشعوب في الأقطار النامية ويجعلها ضحية الاغتراب الثقافي والتمزق الاجتماعي.

خصائص الأخلاق الإسلامية:

١. مصدر التربية الأخلاقية الإسلامية القرآن والسنة، فيهما بيان أسسها الفكرية، وتجتمع فيها مميزات التصور الإسلامي عن الإنسان والكون والحياة كما صورها القرآن والسنة.

٢. الأخلاق الإسلامية **تُنَالُ** بالمجاهدة والاكتساب، مما يعطي الجميع الفرصة للاستزادة منها والتنافس على تحصيلها. **فَعَنْ أَبِى سَعِيد الْخُدْرِىّ - رضي الله عنه - أَنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ** فَقَالَ: **﴿ مَا يَكُونُ عِنْدِى مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله ﴾** [٩]. الأخلاق الإسلامية تتميز بالثبات؛ لأنها أخلاق تعبدية يلاحظ فيها المرء رضا ربه عز وجل، وهي بذلك تختلف عن الأخلاق في المنظومة الغربية التي يدور فيها الفعل الأخلاقي غالبا مع المصالح والأهواء، بينما نجد النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على عبد الدينار وعبد المصلحة الخاصة الذي تدور أخلاقه وأقواله وأفعاله تبعاً للمادة؛ لأن هذا الإنسان **سَيُدْفَعُ يومًا لأَنْ يبيعَ دينه وشرفه وكرامته وكلَّ** غال لديه مقابل ما تعود أن يجري وراءه في شبه عبادة، فَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: **﴿ تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِىَ رَضِىَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ ﴾** [١٠].

٣. الأخلاق الإسلامية تتصف بالشمولية والتكامل، فهي تشمل جميع جوانب حياة الإنسان مع ربه ومع الناس؛ في بيته وفي عمله وفي خلوته وفي المجتمع.

٤. الأخلاق الإسلامية مثالية وواقعية في نفس الوقت، لم تكلف المرء أبدا ما ليس في استطاعته فقد قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [١١] وقال تعالى: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [١٢] وقال تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [١٣].

٥. الأخلاق الإسلامية عالمية حية تصلح لجميع البشر ويعود نفع الالتزام بها على جميع الناس، سواء منهم المسلم وغيره، وذلك تبعاً لعالمية الدين الإسلامي الذي جاء بنظم وتشريعات وأخلاق عالمية، قال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [١٤]. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [١٥]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [١٦].

٦. الأخلاق والسلوكيات الإسلامية المنضبطة بأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية تحقق مكاسب اجتماعية واقتصادية نافعة جداً، سواء في ترشيد سبل الإنفاق أو توفير سبل الكسب والادخار والاستثمار، فهي تبين الطريق الأمثل والأصلح الذي يتبع في أوقات الرخاء والكساد، وفى المكره والمنشط، وفى السلم والحرب. فالأخلاق الإسلامية تسعى لتحقيق المصالح الدنيوية والاقتصادية ولا تهملها أو تقلل من أهميتها، ويتضح صلاحها ورشادها عند معرفة الآثار والمنافع الاقتصادية والحياتية التي تتعلق بالتزام الجميع الفضائلَ

الأخلاقية الإسلامية التي تحض على قيم الصدق والأمانة والاعتدال والقناعة والوفاء وحسن المعاملة والسماحة والبشاشة وطلاقه الوجه، وتحذر من قيم سلبية كالإسراف والتبذير والغش والتدليس وكل صور الاعتداء على أموال الناس وممتلكاتهم، مما يؤدي إلى تحقيق المكاسب المادية والأمن النفسي والرضا الذاتي.

٧. اعتماد الأخلاق الإسلامية على العاطفة الدينية والفطرة الربانية الكامنة في نفس الإنسان، وعلى **المربّي** إثارة هذه العاطفة ما وجد إلى ذلك سبيلا؛ **ليُقْبِلَ المربَّى** على القيمة بلهفة مؤمنا بأهميتها في تحقيق السعادة له في الدنيا والآخرة.

أهمية الأخلاق في بناء الأمم والحضارات:

إن علماء اليوم يركزون على دور الدين كمصدر للقيم الإنسانية، والحضارة الإسلامية حضارة قامت على الأخلاق الفاضلة التي تؤلف بين عناصر المجتمع وتكفل مصلحة الجميع، فإن الأخلاق ليست شيئاً عارضاً في هذا الدين وليست محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشرى، إنما هي الترجمة العملية للاعتقاد والإيمان الصحيح؛ لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير فحسب إنما هو سلوك عملي ظاهر كذلك، بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السلوك العملي أو حين نرى عكسه أن نتساءل أين الإيمان وما قيمته إذ لم يتحول إلى سلوك.

وكذلك فالأخلاق تعد من أولويات التربية لدى الدول على اختلاف أديانها وثقافاتها للحفاظ على هويتها، فالأخلاق هي التي تشكل هوية الأمم، والانحطاط الخلقي وانتهاج المجتمع نهجاً لاأخلاقي يؤدي إلى انهيارها وفساد حضارتها. يقول غوستاف لوبون: ونحن إذا بحثنا في الأسباب التي أدت بالتتابع إلى انهيار الأمم وجدنا أن العامل الأساسي في سقوطها هو تغير مزاجها النفسي تغيرا نشأ عنه انحطاط أخلاقها، ولست أرى أمة واحدة زالت بفعل انحطاط ذكائها [١٧]. فهو يرى أن الحفاظ على البناء الأخلاقي هو الذي يحافظ على بقاء الحضارات؛ لأن سبب انهيارها هو إهمالها لتنمية التربية الأخلاقية بين أفرادها.

وحاجة المجتمعات الحديثة للاهتمام بالقيم الحية الأخلاقية شديدة؛ لأن الوجود الإنساني على الأرض لا يحتمل أي عبث أو تلاعب؛ فالإنسان المعاصر صار يمتلك من الأدوات والوسائل التي إن أساء استخدامها أو تسلط عليها أشخاص ساديون وعدوانيون سوف يدمرون أنفسهم وأوطانهم كما يدمرون العالم بأسره.

فإن تربية الشعوب والأفراد وكذلك تربية السياسات الدولية والقادة والحكام على مبادئ أخلاقية عالية من شأنه تحقيق السلام والتعايش واحترام الآخر، وتجريم الاعتداء وسفك الدماء، وهذه أمور تحقق الخير للإنسان بعامة، ولا شك أن المسلمين أول من يتبنى مثل هذه الدعوة الأخلاقية ويتحمس لإقامتها؛ لأن الدين الإسلامي من قبلُ أقام بناء هذه الأخلاق وحض على وجودها وتنميتها وتربية الناس عليها.

وإن العولمة أو من يعملون في خدمة أفكارها ومبادئها يسعون لنشر برنامج ثقافي تربوي موحد لمفاهيم أخلاقية ارتضوها بين البشر على اختلاف أصولهم وحضاراتهم وأديانهم، وفكرة توحيد المفاهيم الأخلاقية والدعوة إلى امتثالها من أجل تحقيق روح التعايش والتفاهم بين الحضارات لهو شيء حميد إن كانت تلك المفاهيم سيلتزم بها الجميع، ولا تكون مجرد قوالب ثقافية أرادت الحضارة الأقوى فرضها على الأضعف، وليس من ملزم لها أن تُطَبِّقَ تلك المفاهيم الأخلاقية في حياتها وفي سلوكياتها مع الآخرين، فيكون غرضهم من هذه القولبة تحقيق مصلحة الأقوى وإخضاع جميع الشعوب لفلسفته وفكره، ولا تكون دعوتهم خالصة لنشر روح التعاون والتسامح والسلام بين البشر؛ ويكون تقديسهم للسلام أو التسامح حينئذ مرتبطا بتحقيق مصالحهم وأهدافهم.

فلا بد من التأكيد على مسألة تعميم الالتزام بالقيم الأخلاقية بين مختلف الجنسيات والعرقيات والحضارات، بما يتيح لكل منها قدرا من الحفاظ على الأصالة الذاتية والتميز الحضاري والهوية القومية والدينية التي لا تتعارض أبداً مع إقامة أي سلام أو تعايش حضاري.

مفاهيم ومصطلحات خاصة بالبحث:

المفهوم العام للتربية:

هي عملية إنماء الشخصية بصورة متوازنة ومتكاملة تشمل جوانب الشخصية الجسدية والاجتماعية والجمالية والروحية والأخلاقية والعقلية والوجدانية [١٨].

مفهوم الخلق:

نختار المفهوم الذي أشار إليه ابنُ **مسكَوَيه** في كتاب «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق» فقد عرف الخلق بأنه تلك الحالة **النفسانيَّة** التي تدعو الإنسان لأفعال لا تحتاج إلى **تفكُّر وتدبُّر** [١٩]. أي يصير الفعل الإنساني **خُلُقًا** عندما يأتيه المرء بسجية وبدون تكلف أو مشقة على النفس، بل يصير فعلاً محبباً لديه مجبولاً عليه. فهو يأتي الفعل مقتنعاً به ومؤمناً بصلاحه وقيمته الإنسانية.

مفهوم التربية الأخلاقية:

هي السعي لتحقيق مجموعة المبادئ الخلقية والفضائل السلوكية والوجدانية التي يجب أن يتلقنها الفرد ويكتسبها ويتعود عليها منذ تميزه وتعقله إلى أن يصبح مكلفاً شاباً [٢٠].

فالتربية فلسفة كاملة تسهم في بنائها وتحقيقها وتجسيدها وتحويلها إلى واقع عملي متحرك كل المعارف والممارسات التي تبدأ مع الفرد ابتداء من طفولته، ويسهم كذلك في تنشيطها كل موارده الثقافية والعلمية والتدريبية ومجموعة الخبرات التراكمية التي يتحصل عليها ممن سبقوه وينقلها إلى الأجيال من بعده.

مفهوم القيم:

القيم عبارة عن محكات ومقاييس نحكم بها على الأفكار والأشخاص والأشياء والأعمال والموضوعات والمواقف من حيث حسنها وقيمتها والرغبة بها، أو من حيث سوئها وعدم قيمتها وكراهيتها، أو في منزلة معينة ما بين هذين الحدين، ويعتمد مستقبل أي مجتمع على القيم التي يختارها أكثر من اعتماده على تقدمه التكنولوجي [٢١].

مفهوم القيم الحية:

هي تلك القيم التي يحتاج إليها كل إنسان لأجل بناء ذاته بناء أخلاقيا سويا، وكذلك يحتاج كل مجتمع أن يلتزم بها؛ كي **يَصْلُحَ أفرادُه ومجموعُهُ** للتعايش والتواصل الحضاري والإنساني مع باقي المجتمعات الإنسانية.

مفهوم البرنامج التربوي:

وهذا البرنامج طبقا للمفهوم الغربي **يعنَى بِوَضْعِ** خطة ومنهج لتعليم القيم الحية التي تهم جميع البشر، وإقامة مجموعة متنوعة من الأنشطة الاختبارية والمناهج العملية الخاصة بالقيم موجه إلى المعلمين والمربين، ويهدف إلى زيادة المهارات الذاتية والاجتماعية الإيجابية والتعاونية لدى الأفراد، وذلك يعنى زيادة الفاعلية والتأثير والتأثر بين الإنسان والآخر.

وإن أدنى تأمل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومواقفه التربوية مع أصحابه ليبين أنه لم يكن يمسك بصحيفة بها مجموعة من التعاليم الأخلاقية يلقيها على أصحابه إلقاء، بل كانت تربيته النفوس وتزكيتها وترسيخ القيم وأصول المحبة فيها خاضعة لمنهج دقيق وأيدلوجيا شاملة مستوعبة لكل مناحي الحياة، استخدم فيها النبي صلى الله عليه وسلم أرقى وأنفع الوسائل التربوية وكذلك الأدوات المساعدة التي حققت أعلى النتائج وأقيمها.

وإن وجود هذا المنهج لمسألة واضحة بينة، وما يقوم به البحث هو عملية استبيان أو استخلاص لأهم عناصر هذا المنهج وخطواته وعلاماته، مما تطلب الوقوف بنظرة تحليلية للنصوص والشواهد التي جمعت النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في مواقف تربوية ذات دلالة؛ لنرى كيف طبق النبي صلى الله عليه وسلم هذا المنهج بشكل دقيق وفعال.

اهتمام الإسلام بالأسرة كبيئة أولية للتربية الأخلاقية:

للأسرة كوسط اجتماعي أولي تنشأ فيه الأخلاق **فَيُرَبَّى عليها النشءُ أهميةٌ كبرى واهتمامٌ بالغٌ** في الدين الإسلامي، حيث جعل الشرع الشريف **يُفَصِّلُ أمرَ كلِّ جُزْئية** في هذا الاجتماع ولا يتركها **عرضةً للأهواء** والعبث، مما جعل الكيان الاجتماعي الأسري محكوماً بقوانين إلهية وضوابط شرعية، جعلت منه كياناً سليماً نزيها يحقق الأمن والاستقرار والسعادة للفرد والأسرة والمجتمع.

بينما يسعى **التَّوَجُّهُ الاجتماعيُّ** لحركة العولمة إلى صياغةٍ **عالمية** لشكل الأسرة، **يُحَدِّدُ** فيها نظامها والعلاقة بين أفرادها من ناحية وعلاقتهم بالمجتمع من ناحية أخرى، مما يؤثر تأثيراً كبيراً على منظومة القيم الأخلاقية التي تسود في المحيط الأسري، وقد دعت إلى هذه الصياغة الجديدة تلك المؤتمرات العالمية التي **تُعْقَدُ** بين الحين والآخر، ولا تهدف إلاّ **فرضَ سيطرةِ المنظومةِ** الغربية التي تتعلق بالقيم الأخلاقية على بقية العالم اللاغربي، باعتبار أن مفهومها للأخلاق هو الحق الخالص والحقيقة التي لا تقبل نقاشاً ولا جدالاً.

أمّا الإسلام فقد جاء بنظام اجتماعي متكامل، يقوم على أسس متينة من الأخلاق الفاضلة، فالأسرة هي الكيان المصغر للمجتمع، وتشريعات الإسلام تسعى دائما لتوفير مناخ طيب تزدهر في ظله الأخلاق الكريمة ويحدث أثره في استجابة المسلم المتلقي للعلم والتربية. فالعملية التربوية لا تنعزل عن الحياة الاجتماعية بل هي مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً، والأخلاق إنّما يمارسها الإنسان في وسط اجتماعي، وعلى قدر ارتقاء هذا الوسط يكون تقبله للأخلاق الكريمة.

١. **أَوْلَى الإسلامُ اهتمامَهُ بالأسرةِ** قبل أن **تَتَكَوَّنَ**، **فأمرَ بحُسْنِ اختيارِ** الزوج، كي يتوفر المناخ والبيئة الصالحة للتربية الأخلاقية، فَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ﴿ **تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ، وَانْكِحُوا الأَكْفَاءَ، وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِمْ** ﴾ (٢٢). فالنبي يأمر كلا من الرجل والمرأة بالتدقيق في اختيار شريك الحياة الذي **يكوّن** النصف الآخر في بناء الأسرة.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم الأب أو **وليَّ الزوجة أن يُدَقِّقَ** في اختياره لابنته زوجا صالح الخلق ذا دين، فَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿ **إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ؛ إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ** ﴾ (٢٣).

وذلك لأن رب الأسرة له دور كبير في التربية الأخلاقية.

٢. وكذلك **بَيَّنَ النبيُّ** صلى الله عليه وسلم **للرجلِ الأسسَ** والاعتبارات التي ينظر إليها ويبني عليها اختياره للزوجة، فَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ﴿ **تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ، لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ** ﴾ (٢٤).

فالمال والحسب والجمال أمور لها اعتبارها وتأثيرها على التربية، ولكن لا غنى بأحدهما عن توفر الفكر والعقيدة والأخلاق الكريمة التي يكون تأثيرها أشد في إقامة الأسرة زوجاً وأبناء على طاعة الخالق وحسن الخلق.

٣. **وبَعْدَ تكوُّنِ الأسرة يَأْمُرُ** الشرع بما يحقق السلام والمحبة والسعادة داخل الأسرة، فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: ﴿ **مَا اسْتَفَادَ الْمُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَى اللهِ خَيْرًا لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ، إِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ** ﴾ (٢٥).

فالنبي صلى الله عليه وسلم **يُنَبِّهُ الرجلَ المؤمنَ** على الصفات والخلال التي لا بد له أن **يَشْكُرَهَا** في زوجته **ويعلمَ قَدْرَ نعمة** الله عليه **إنْ وَجَدَهَا**، ومن ناحية أخرى فهو **يُوَجِّهُ** أمرًا خفيا للمرأة **يُعْلِمُهَا** فيه بتلك الصفات التي لا بد أن تتحلى بها كي تكون زوجة صالحة، أي صالحة لهذه الصفة – الزوجية – التي تقتضي المشاركة والمعاونة بالصبر والسماحة والمحبة.

وأما عن أمره صلى الله عليه وسلم للزوجة بطاعة أمر زوجها والإقرار بقوامته، فهو أمر أولاً مرتبط بصلاحيته للقيام بمثل هذه القوامة، وهذه الصلاحية يدركها برجاحة عقل وقوة عزيمة وصلاح دين وفكر وعلو منزلة ومكانة بين الخلق. وثانياً هو أمر مرتبط بما فرضه الشرع عليه من واجبات في أدائها مشقة عليه، تتخفف المرأة من تحمل عبئها. وأما ثالثاً فهو أمر **يُنَظِّمُ الحياةَ الأسريةَ ويُقيمُهَا** على السلام والفاعلية؛ لأن الصراع الذي ينشأ بين الزوجين دائماً يكون بسبب رغبة كليهما فرض إرادته وسيطرته على الآخر، وهو أمر يؤدي إلى الفشل وعدم التقدم إلى الأمام؛ وهو أمر دائم مستمر عند كل كبيرة وصغيرة في الحياة، ولا **يُؤْذِنُ بِخَيْرٍ**؛ لأنه يدمر البيئة التربوية الأسرية؛ والتي ستغدو بيئة صراع وعراك مستمر. **فَرِضَا المرأةِ وقناعَتُهَا بضرورةِ وجودِ رأيٍ** واحد وطريق واحد يسير فيه الزوجان اللذان ارتضيا **الاشتراكَ** في الحياة يجعلها ترتاح وتنجح، وليس لمسألة اختيار الرجل للقوامة الأسرية في الإسلام أي اعتبار لنوعه أو نظر لجنسه، ولكن الشارع أراد السلام الأسري وهدوء البيئة الأخلاقية الأولى **فَلَزِمَ أَنْ يُحَدِّدَ للزوجين من يَنْفُذُ رَأْيُهُ** عند الخلاف والتعارض.

وتكليفات الإسلام للرجل والمرأة في بيت الأسرة **تُحَمِّلُ كلاً** منهما مسئولية الحفاظ على هذا الكيان الاجتماعي وملئه بالحب والتعاون والاتحاد وإقامته على الصدق والسلام. وكل هذا من شأنه أن يحتضن أطفالا مُحِبِّينَ للسلام للجمال للمحبة والاحترام.

هوامش المقدمة

١. موطأ مالك (كتاب حسن الخلق - باب ما جاء في حسن الخلق) ٢/٩٠٤، رقم (١٦٤٣).
٢. البخاري (كتاب فضائل الصحابة - باب مناقب عبد الله بن مسعود) ٥/٢٨، رقم (٣٨٠٥).
٣. الترمذي (كتاب البر والصلة - باب ما جاء في حسن الخلق) ٤/٣٦٢، رقم (٢٠٠٤).
٤. أبو داود (كتاب الأدب - باب في حسن الخلق) ٥/٢٧٥، رقم (٤٧٦٦) .
٥. أبو داود (كتاب الأدب - باب في حسن الخلق) ٥/٢٧٥، رقم (٤٧٦٥) .
٦. سورة القلم: الآية ٤.
٧. سورة الشورى: آية ٣٩ - ٤٣.
٨. أبو داود (كتاب الأقضية - باب اجتهاد الرأي في القضاء) ٤/٢١٦، رقم (٣٥٨٧).
٩. البخاري (كتاب الزكاة - باب الاستعفاف عن المسألة) ٢/١٢٢، رقم (١٤٩٢).
١٠. البخاري (كتاب الرقاق - باب ما يتقى من فتنة المال) ٨/٩٢، رقم (٦٥١١).
١١. سورة التغابن: آية ١٦.
١٢. سورة هود: آية ٨٨.
١٣. سورة القصص: آية ٧٧.
١٤. سورة القلم: آية ٥٢.
١٥. سورة الأعراف: آية ١٥٨.
١٦. سورة الأنبياء: آية ١٠٧.
١٧. غوستاف لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم ص١٧٢، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف ١٩٥٠م.
١٨. د/صبحي أبو جلاله ود/محمد العبادي: أصول التربية بين الأصالة والمعاصرة ص١٩، ط١/٢٠٠١م ، مكتبة الفلاح الكويت.
١٩. ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص ٥١، مكتبة الحياة بيروت، ط٢.
٢٠. د/مقداد يالجن: التربية الأخلاقية الإسلامية ص٩٥، مكتبة الخانجي، ط١/١٣٩٧هـ.
٢١. ماجد الكيلاني: فلسفة التربية الإسلامية ص٢٩٩. مكتبة هادي بمكة المكرمة، ط١٤٠٩هـ.
٢٢. ابن ماجه (كتاب النكاح - باب الأكفاء) ١/٦٣٣، رقم (١٩٦٨).
٢٣. الترمذي (كتاب النكاح - باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه) ٣/٣٨٥، رقم (١٠٨٤).
٢٤. البخاري (كتاب النكاح - باب الأكفاء في الدين) ٧/٧، رقم (٥١٤٦).
٢٥. ابن ماجه (كتاب النكاح - باب فضل النساء) رقم (١٩٣٠).

IPE
مؤسسة التعليم الأهلي
Institute for Private Education

Tel.: (+965) 24613894 / 24613895 - Fax: (+965) 24613905 - 24613905
www.ipe.com.kw